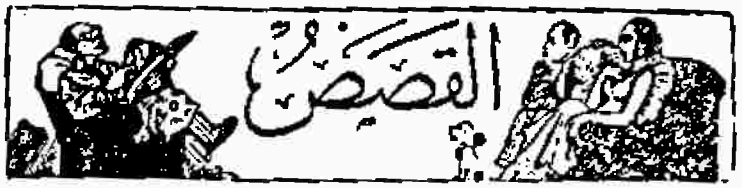

البجعة

للكاتبة الإنجليزية باميلا . ه . جونسون

في اللحظة التي شاهدت فيها الطفلة ولاحظت هزالها وهي واقفة بجوار النافذة المستديرة، ويداها تعبثان بعنق التمثال الخزفي للبجعة البيضاء، أيقنت أنها ستصير حتماً من الجميلات عندما يكتمل نموها. ولم تكن قد شعرت بوجودي، فوقفت — كما كنا بجوار باب الغرفة أتأملها في إمعان.

كانت سنها — على ما أعتقد — تتراوح بين الحادية عشرة وكانت — إذا عنّ لي أن أحكم عليها — أكثر شبهاً بوالدتها جلاديس من صورة أبيها توم، تلك الصورة التي شاهدتها معلقة في المطبخ. ولاحظت أن أطرافها نامية نمواً ملحوظاً، وعينيها واسعتان بالنسبة إلى وجهها، ترتدي مئزراً قديم الطراز أبيض اللون، قصير الأكمام، يتحلى بزركشة وزخارف من «الدانتلا» على حافته. وكان نظيفاً على نقيض ردائها الداخلي الداكن الذي كان يبدو قديماً رثاً.

كانت الطفلة تحرك أناملها في حنان على صدر البجعة وجناحيها. وبدت كأنها معجبة بذلك التمثال المصقول، فكانت تتأمله وكأنها خبيرة بفنه وجماله. وكان شعرها مشدوداً خلف جبهتها الصغيرة البارزة، وقد انعقد بشريط أبيض. ولعلّ أحدثت حركة بسيطة، فقد التفتت الطفلة ناحيتي ونظرت إليّ، ثم فارقتها في الحال روح الطمأنينة، ودفعت بالبجعة خلف ستار، ثم جعلت تمسح يديها في مئزرها — وكان في بياض الثلج — فترك فيه أثراً خفيفاً من قذارة يديها. وبدت أسنانها من بين شفتيها وتراجعت كما لو أنها ستختفي كما اختفت «[1] أليس» خلال المرآة.

(١) قصة «أليس في بلاد العجائب» من قصص الأطفال المشهورة، تدخل فيها «أليس» إلى هذه البلاد من طريق المرآة. المترجم.

ولم أتفوه بكلمة وأنا أتأمل ذلك الجمال المنتظر. حقاً، لقد كانت أكثر شبهاً بجلاديس من توم. كانت تشبه جلاديس التي كنت أعهدها منذ زمن بعيد، لا تلك التي أعرفها الآن. ولم تصرف الطفلة عينيها عن وجهي، في الوقت الذي كانت فيه تتحسس الحائط خلفها، وتتحرك في تلصص بجواره وقد تصلب ظهرها. فقلت «تعالي. لا تذهبي» فشهقت شهقة قصيرة من الرعب، ولكني تقدمت إليها وقبضت على معصميها، وانحنيت في ذات الوقت حتى صار وجهي في مستوى وجهها، وقلت «لا تهربي إني عمك (نيل)». وحاولت أن تبتسم في أدب ثم ارتجفت عضلة على ركن فمها بعد أن تلاشت ابتسامتها.

سألتها في رقة «لماذا تخافينني؟ إني أعرف والدتك منذ زمن طويل. وها قد مضت عشرون عاماً دون أن أراها. أليست تلك مدة بعيدة؟ لقد أخبرتني أن أحضر هنا لأشاهدك» وأضفت قائلاً حتى أجعلها تشعر بالسعادة «لأشاهد أي فتاة كبيرة لها».

وأومأت الفتاة برأسها في صمت تشير إلى البجعة. فقلت «تمثال جميل، أيعجبك؟» فابتسمت.

قلت «ما اسمك؟» فلم تجب. قلت «أنت (آمي)» فهزت رأسها بالنفي في شدة وخوف ظاهر. وعجبت، ما الذي فعلته جلاديس حتى جعلت هذه الطفلة مرهفة الأعصاب تهاب الغرباء؟ وشاهدت جلاديس من خلال النافذة، واقفة عند مدخل الخباز، تسارع في شراء كعك للشاي، فقد كانت زيارتي لها فجائية، ولم يكن عندها ما تقدمه إليّ، ولذلك قالت لي «ألا تستطيع أن تسلي نفسك مدة عشر دقائق يا نيل؟ يجب أن أستحضر العشاء لتوم. وإذا حضرت آمي قبل عودتي فعرفها بنفسك».

وقلت للطفلة «متى قدمت؟ لقد أخبرتني والدتك أنك ذهبت إلى الخليج».

فابتسمت كأنما سرت لقدومها إلى الدار على غير انتظار. وفجأة أمسكت البجعة ودفعتها في يدي، ثم قالت «جميلة!» فوافقتها على ذلك. تذكرت رؤيتي لهذا التمثال منذ عشرين عاماً في دار جلاديس القائم على قمة الجرف. وكانت البجعة قطعة أثرية نفيسة من الخزف.

ووضعت الطفلة يديها على كتفى ، فركعت ، وإذا بها تجلس على ركبتى ، وهى تبتسم فى وجهى ، وكأنما توطدت الصلات بيننا . وأخبرتها بوجه الشبه بينها وبين والدتها ، وحدثتها عن جمال أمها . وقلت أتعرفين أننا اعتدنا — أنا ووالدتك أن نذهب إلى الخليج ، وقد حملنا معنا أدوات الشاى لنقضى بقية يومنا هناك ؟ وكنت أسبح حيث تقوم تلك الصخور الثلاثة فى صف واحد ، وادعى بأنى فى يوم ما سأسبح وأسبح ولن أعود ثانياً . ثم أختبىء فى ذلك الكهف الصغير الواقع تحت الجرف مباشرة وأناديها مثل ... » وبحثت عن كلمة لطيفة فقلت « مثل النورس[1] »

وصفقت الفتاة ، ثم عقدت يديها كما لو أنها تذكرت تحذيراً بألا تنفض أصابعها مطلقاً . وانتظرت متابعتى الحديث فقلت « ثم أصبح راجعاً فتحتفى ، ثم ننفجر ضاحكين ... كان ذلك منذ زمن بعيد » .

فسألتنى وهى ترفع أصبعها فى حذر لتلمس قمة رأسى « وأين كنت ؟ » فاعتقدت أنها تعنى « أين كنت هذه المدة ؟ » فأجبت « كنت فى الخارج » .

فبدت كأنها تفقه ما قلته . وكنت قد وضعت البجعة على الأرض بجوارى ، فشعرت بها تنزلق عن ركبتى متجهمة الوجه ، ثم التقطت التمثال وأخفته عن الأنظار خلف الستار ، ثم عادت تجلس معى وانتظرت أن أفضى إليها ببقية الحديث ، فقلت « إنى لم أقابل والدك بعد ، مع إنى شاهدت صورته » فابتسمت فقلت « ولكنى سأقابله الليلة عندما يعود من عمله » .

ووضعت الطفلة ذراعها حول عنقى ، فشعرت بسرور عظيم يخالجنى ، وإذا بى أسألها « أية هدية تودين أن أبعث بها إليك ؟ » فأشارت فى الحال صوب النافذة ، فقلت « البجعة ؟ » فابتسمت . فأردفت قائلا « سأشترى لك واحدة مثلها من لندن ، وسأبعث بها إليك فى طرد مسجل ومدون باسم الآنسة آمى أوين » فحركت رأسها فى عنف ، ثم أخفت وجهها بين يديها ، وبعد لحظات نظرت إلى ، وقد استعادت هدوءها السابق ، ثم جذبت الشريط المعقود من شعرها ، فانسدل بلونه الأشقر كلون الصباح على رمل الشاطىء الندى .

وسألت الطفلة « أتميلين إلى ؟ » فلمست خدى . ولاحت لى جلاديس مرة أخرى ، تتحدث إلى جار لها خارج البوابة ، وشاهدتها الطفلة فقفزت من ركبتى ، وبدت كأنها خجلة أو خائفة . ثم اختطفت الشريط من يدى ، وجمعت شعرها وعقصته ، ثم ربطته ، بالشريط ربطة غير متقنة فى لهفة وكأنها تتوق إلى الرحيل . فسألتها « إلى أين تذهبين ؟ » .

وأشارت إلى جلاديس من خلال النافذة ، ففتحتها وسألتها ما الأمر ، فقالت « لقد نسيت المفتاح . أرجو أن تفتح لى الباب » .

وعندما التفت حولى ، كانت الفتاة قد اختفت ، فظننت أنها أسرعت إلى المطبخ تنتظر قدوم والدتها أو صعدت لتغسل يديها استعداداً للشاى ، فقد لاحظت أنهما قذرتان وبهما خدوش كأنها حدثت أثناء محاولتها تسلق الصخور الزلقة التى حول الخليج . وأحسست الخيبة ، فقد كنت أود أن ترانى جلاديس معها ، فربما حدثتنى بلهجة أقل خشونة من حديثها السابق ، عندما ترى الوفاق الذى توطد بينى وبين الفتاة .

وفتحت الباب فدلفت منه جلاديس مجهدة وقالت « إنى آسفة لتغيبى هذه المدة الطويلة يا فيل . إن هذا هو الضرر الذى يأتى من معرفة الناس للانسان فى الطريق ، ولا بد أن تقف وتحيى عند كل ناصية » .

وذهبنا إلى المطبخ ، وجعلت أساعدها فى نقل حاجاتها ، وسمعتها تقول لى « كيف استطعت أن تجلس هنا وحدك ؟ » .

فقلت ضاحكا : « لم أكن هنا وحدى . إن آمى كانت معى » فلم تفه بكلمة ، فنظرت إليها فشاهدت فى دهشة أن وجهها قد تقنع بقناع من الحيرة ، فقلت « ما الأمر ! ؟ » قالت « لا يمكن أن تكون شاهدت آمى . إنى قابلتها فى طريق وهى مقبلة من الشاطىء ، وقد أرسلتها إلى محل لوز لتقص شعرها ، وستحضر وقت تقديم الشاى » .

وأحسست بشعور خفى من الرهبة يغزو قلبى ، فقلت « ولكن ، لا يمكن أن يحدث ذلك ، لقد كانت تتحدث معى هنا ، وكانت تجلس على ركبتى » فقالت « ما شكلها ؟ » فجعلت أصف لها الطفلة بشعرها المعقود بالشريط ، وردائها البنى ، ومئزرها الأبيض وقلت « وكانت تلعب بالتمثال الخزفى للبجعة البيضاء الموضوع على النافذة » .

(١) النورس : طائر مائى .

وهبت جلاديس واقفة ، وقد تصلب جسمها ، ثم صرخت صرخة مخيفة ، وأمسكت بها قبل أن تخر ساقطة ، وأجلستها على المقعد . وعندما فتحت عينيها نظرت حولها فى ذهول ورعب ثم قالت « أغلق الباب والنافذة » وازداد شعورى بالخوف وخيل إلى بأن ظلاما حالكا قد خيم على جو الغرفة ، لم أعهده فيها من قبل.

وقالت جلاديس « لقد رأيت مارجريت » واعتدلت فى مقعدها ، وقد اتكأت على مرفقها تراقب الباب المغلق . وألحت علىّ أن تفسر لى ما غمض من حديثها ، وتخبرنى به دون إبطاء ، فقد كنت أود أن يطغى صوتها على أى صوت أتوقع حدوثه كوقع أقدام تسير فى تؤدة وتردد على الدرج ، واحتكاك يد صغيرة تستند على الباب ، ولكنها لم تنه بكلمة . وبدافع قوى ، تركتها وهى تبكى وتتوسل أن أظل معها ، وذهبت إلى الغرفة الأمامية ، وأزحت ستائر النافذة . كانت البجعة لا تزال فى موضعها ولكنى لاحظت فيها شيئاً لم الاحظه من قبل . كان العنق يتصل ببقية الجسم بمسار مقعر لامع . واستمعت فى سكون الغرفة إلى دقات قلبى ، وأغمضت عينى وأنا أسير فى الممر عائداً إلى المطبخ ، وجعلت أتحسس طريقى بأطراف أصابعى دون أن أدرك ما الذى ألمسه . كانت جلاديس لا تزال متكئة على مرفقها ، وقد بدت فى عينيها دلائل الرعب والخوف . فقلت « من هى مارجريت ؟ » قالت « أنها ابنتك . أنت بعد فراقك الفجائى مباشرة . كانت طفلة جميلة . وكانت تعيش معنا — أنا ووالدتى — دون أن يعرف أحد عنها شيئاً ، ولم نكن نسمح لها بالخروج فيما عدا الحديقة بعد الشفق . كان من الصعب أن تهدىء من حالها ، فقد كانت دائمة القفز والمرح ، دائبة على اللعب والغناء . وكانت معجبة بالبجعة البيضاء وتحب أن تلهو بها ، فنهاها جدتها عن ذلك ، لأن التمثال كان تحفة ثمينة ولكن حدث فى ذات يوم أن أستقلت البجعة فانفصلت رأسها . أظنك قد لاحظت المسمار المثبت فى عنقها » .

وكنت أعرف أنه لم يكن هناك مسمار عندما كانت الطفلة تداعب بأناملها الجميلة جسم البجعة المصقول .

واستطردت تقول « كانت والدتى ذات مزاج حاد ، وكان من الصعب عليها أن تساعدنى فى ولادة ابنتى التى لا يعرف الناس عن والدها شيئاً ، بل كانت تشعر بالعار من ذلك . ولم يكن يزور دارنا القائمة على الجرف هناك سوى البابان وبائع الصحف . وعندما رأت والدتى البجعة المكسورة ، انحنت على الطفلة ، وقبل أن أمنعها ، كانت قد لطمتها لطمة قوية على أذنها . ولم تكن والدتى فى الواقع تعنى أن تؤذيها ، بل أرادت أن تلقنها درساً فى الطاعة . وعدت مسرعة صاعدة إلى الطابق العلوى وهى تبكى وتنتحب ، وشعرت بارتباك وألم من كل ما حدث فقد كنت مغرمة بالطفلة ، حقيقة كنت أحبها حباً شديداً . وفى تلك الليلة خرجت مسرعة من نافذة غرفتها وهربت . ولا أدرى كيف استطاعت النزول من ذلك الارتفاع ، فقد كان من الصعب على طفلة مثلها أن تهبط على تلك النباتات المتسلقة الرقيقة .

وكدت أجن . ولم أجرأ على البحث عنها بحثاً دقيقاً خشية ألسنة الناس . على أية حال ، مكثت طول الليل هائمة عند الجرف . وفى الصباح عثرت على قطعة بيضاء من القماش ملتصقة على قمة إحدى الصخور الثلاثة ، فتزلت ولا أدرى كيف ، فإنى كما تعرف أخاف دائماً المرتفعات . كانت قطعة من مئزرها قد انحشرت بين نتوءين . فاستنتجت ما حدث . ومكثنا أسابيع ننتظر دون أن نجرؤ على التحدث ، ولم نستطع النوم ليل نهار . وأخيراً وجدوا جثتها . كان قد لفظها البحر وألقاها على الشاطىء على بعد أميال من هنا ، فى مكان لا أعتقد أننا ذهبنا إليه يوماً ما . ولم يتبينوا شخصية الجثة ، فإنه لم يبق منها شىء عندما ... » .

وفجأة أمسكت بمعصمى وقالت : « ألا تسمع ؟ » .

وكدت أموت رعباً وأنا أقول « ماذا ؟ » قالت « ثوم . إنه قادم . لا تخبره بشىء . قل إنى مريضة . قل إنه قد أغمى على . قل أى شىء ... » .

وسمعته وهو يفتح الباب . فقلت لها فى سرعة « ولماذا احتفظت بالبجعة ؟ » .

فنظرت إلى كأنها لا تعى ما أقول . ثم قالت « إنها تحفة قيمة . لقد كانت والدتى تقول إنها ثمينة » وجعلت عيناها تتطلعان إلى السقف والحوائط والأركان ، كأنها لا تدرى من أى فضاء فى العالم قد يعود شىء إليها ، شىء كان عزيزاً عليها ، ثم فقدته إلى الأبد .

محمد فتحى عبد الوهاب